النمط اللغوي

في فهم النص القرآني

دكتور

قدرية هوكلكلي

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

التمهـيد: مقدمة البحث ومنطلقاته

الفصل الأول: تعريف التطور الدلالي، وتوصيف التمطط اللغوي

الفصل الثاني: التمطط اللغوي في النص القرآني، وعواقبه

الخاتمــة: نتائج وتوصيات

ملحــق: المصادر والمراجع

التمهيد

لا محالة أن اللغة ليست مجرد رصيد من ألفاظ تتوافق مع بعضها عشوائيًا، وإنما هي مزيج من فكر وتاريخ وحضارة ووجدان ينصهر في بوتقة واحدة تُدعى "السياق"، أي أنّ المعنى رهينٌ بالسياق الذي ورد فيه، ويتمظهر في سوابق الكلمات ولواحقها. وعليه فإن التحدث عن دلالة أيّ كلمة، فإنه يستحضر بالتزامن كل ما ينبئ عن ماهيتها ومكوّناتها ومؤثرات نشأتها، وهذا الذي يُدعى في تشكلية شرعية في فهم النص القرآني بصفة الخلفية "سبب النزول". ويغدو إدراك المقصود بصرف النظر عن هذين الاصطلاحين مستحيلًا، وعلى الرغم من هذا ثمة محاولات لتأويلات مبتكرة في الآيات القرآنية، تسعى إلى تحديث المعاني القرآنية في ظل المفاهيم المعاصرة. وهذه هي فكرة عصرنة المعاني القرآنية نظرًا للتطورات العلمية التي رُفضت عبر البحث، وعبر فكرة الالتزام بالسياق وسبب نزول الآيات، والاحتفاظ بالمقصود الأساسي الذي وُضع عليه.

ومن البدهي أن معرفة مدلولات المفردات القرآنية تستوجب إتقان الإيحاءات اللغوية والشرعية للكلمة. أما المعاني العرفية في لهجة ما أو لغة أخرى فتتغير في الدلالة. وفي حال تحمل الكلمة غير المعنى الذي تحتويه حسب منطوق العرب في عهد نزول القرآن المجيد، أو تحمل

المعاني على الكلمة في ضوء التقدمات المعاصرة سيؤدي إلى التوسّع في الدلالة وتجاوز مقصدية المعنى والهدف، وهذا هو التمطط اللغوي الذي يناقش البحث فكرته أملًا في الابتعاد عنه لما له من أثر سلبي في فهم النص القرآني.

يرنو هذا البحث إلى إبقاء الآيات المقدسة كما أدركها مخاطبوها على نحوها، مثلما تدعم الفلسفة اللغوية العامة أن المعنى يرجع إلى أول معنى وُضع عليه، وتعاليق ملاحقة لاتكتنه لبّ الكلام وسببه، ولا تتخطّى مستوى التأويل الشخصي الذي لا يمكن أن يُدّعى أنه يبيّن الآية دون الرؤية الفردية. كما أن القرآن المجيد الذي نُزل لأجل هداية الناس إلى صراطٍ مستقيمٍ، بريءٌ من تفسيره بتوسّط التطورات المعاصرة العلمية، لأن هذا سيعني أنه مفهومٌ بقدر التقدم العلمي وإلا إذا أنه سيبقى غامضًا، هل هذا منطقيّ مع أنه قرآنٌ مبِينٌ؟!

يستفيد البحث من معطيات المنهجين الوصفي والتحليلي بالوقوف على فكرة التطور الدلالي والتمطّط اللغوي، ويتضمن بيان هذين المفهومين، ومن ثم تصريح عواقب التمطّط في فهم النص القرآني، ويقرّ بأهمية السياق ومدى تأثيره في تغيّر معاني المفردات، ويشير إلى مغبّة تعدّد تأويلات المفسرين على هواهم انعزالًا عن السياق في المتن المقدس وبدون الاكتراث لما وافق لكلام النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام والتابعين لهم (رضي الله عنهم) على مثله. وبالأحرى التشديد على أن هذا البحث ليس إلا محاولة متواضعة لإظهار الوضع الراهن في أعمال تفسير القرآن إذ يتطوّر معنى آياته إفراطًا فيها، ولتقوية الوعي حيال هذا الوضع لأجل حفظ المرمى الإلهي تبعًا لقصد نزوله لأول وهلة. لذا اعتمد البحث المباحث النظرية التي مهّدت الطريق لأجل تكوين وجهة النظر

السليمة الصائبة في سبيل فهم آيات القرآن، ولم يذهب إلى مناقشة أسباب نزولها أو تفاسيرها المتعددة بإكثار النماذج، بل فضّل أن يكون إطلالة موجزة بدون الخوض في التفصيلات، واكتفى بتقديم الحالة الموجودة كتيّار مستحثّ في عصرنا، وبتأييد وجوبية الالتزام بالمعاني الأولى دون إخضاع الآيات القرآنية للمفاهيم المستحدثة.

التطور الدلالي والتمطّط اللغوي

التطور لغةً: التحول من طورٍ إلى طور، والتغير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها أو في تركيب المجتمع والنظم والقيم السائدة فيه.[1] والتطور الدلالي: انتقال الكلمة من طورٍ إلى طور، وغالبًا يحدث هذا التبدل على مر الزمان وتقلبات العصور بما أنه ظاهرة شائعة في اللغات بأسرها لأن اللغة كائنٌ حيٌ ينمو ويتطور من عدة نواحٍ: صوتية وتركيبية ودلالية. فإن اللغة كسائر الظواهر الاجتماعية يطرأ عليها التبدل والتغير، وللعوامل الدينية والقومية أثرًا في توجيه هذا التطور في وجهة دون أخرى. وإن التطور في اللغة لا يتجه دومًا نحو الأحسن، بل قد يكون تردّيًا وانتكاسًا.[2]

وثمة ميل طبيعي لمفردات لغةٍ نحو النمو والتكاثر، نتيجة لنمو النشاط الإنساني بمرور الزمان وتكاثره، لأن هناك أشياء كثيرة تجدّ، وأحوالًا تنشأ، وأفعالًا تستحدث ومعاني تتولد، وكلها تتطلب لأنفسها تعابير مستجدة لكي تظهر في أرض الواقع. ويتم الحصول على هذه من عدة طرق مختلفة.[3]

---

[1] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ٥٦٩-٥٧٠.

[2] محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص ٣٢-٣٣-٢٠٧.

[3] ماريو باي، أسس علم اللغة، ص ١٥٤.

أي المعاني الجديدة تتبلور في مراحل أربع بوجه عام: ورود معنى جديد في موضع خاص، مرحلة انتقالية من تكرر الورود والارتباط بين الصيغة والمعنى، ظهور معنى جديد مستقل في مواضع مختلفة، إمكان قطع الصلة بين المعنيين القديم والحديث.[١] ويهمنا هنا الطريق الثالث والرابع لتوضيح التمطط اللغوي، وهذا أمر موكّل إلى طبيعة المجتمع المتلقف لها فيما يستحسن أو يستقبح.[٢] إذ إن الحقيقة العلمية التي لا مراء فيها هي أن كل الألسنة البشرية ما دامت متداولة فإنها تتطور، ومفهوم التطور لا يحمل شحنة معيارية لا إيجابًا ولا سلبًا، بل يعني تبدل نسبي في الأصوات أو في التراكيب أو في الدلالة على وجه الخصوص.[٣]

أهم ظواهر التطور الدلالي ترجع إلى ثلاثة أنواع: الأول؛ تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف المفردات وتركيب الجمل وتكوين العبارة، والثاني: تطور يلحق الأساليب كما حدث في اللغات المحكية، والثالث: تطور يلحق معنى الكلمة نفسه، مما يخصص معناها العام تارة، أو يعمم مدلولها الخاص تارة أخرى، أو تخرج عن معناها القديمة فتطلق على معنى آخر وتستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول. وهذا هو ما قصدناه بل انتقدناه بالتطور الدلالي عبر البحث. لأن هذا التطور لم يتجه دائمًا نحو التهذيب والكمال، بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها، وجرّد اللغة من دقة وسمو وهوى إلى منزلة وضيعة في التعبير.[٤]

---

[١] تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص ٢٤٢.

[٢] عمار قلالة، التطور الدلالي في مقاييس اللغة لابن فارس، ص ٣٠.

[٣] عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص ٣٨.

[٤] علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ٣١٣-٣١٨.

للتطور الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه ومظاهر معينة يسلكها هذا التطور. وقد يكون هناك عوامل متعمّدة كقيام المجامع اللغوية والهيئات العلمية لسد الحاجة إلى خلع دلالات جديدة على بعض الألفاظ التي تطلبتها حياة اجتماعية أو سياسية وكقيام بعض السادة الحريصين على إيجاد المفردات البديلة بل التعابير المتجددة لترسيخ الأفكار في الأذهان بوجه أفصح وفقًا لمتطلبات عصرهم، وقد تكون عوامل لا شعورية تتم دون تعمد كسوء الفهم.[١] وهناك عدة دوافع لتطوير الدلالة مثل الحاجة إلى كلمة جديدة أقدر من غيرها على التعبير عن المقصود في ضوء تطورات العصر.[٢] إذ تحظر بعض لغات استعمال بعض الكلمات بسبب حسّاسيتهم في ذلك الشأن ولا سيما إذا كان لها إيحاءات مكروهة في ذلك المجتمع دون الآخر، وهي ما تُعرف بصفة اللامساس أو المحظور أي: تابو يفضي إلى تجنب ذكر بعض ألفاظ وعبارات لأسباب دينية واجتماعية ونفسية. وهذا يميل إلى التحايل في التعبير أو التلطف، وهذا يعني تغير المعنى وتعبيره في غير ما وُضع عليه. وقد يكون في شكل الانتقال من الدلالة الحسية إلى الدلالة التجريدية أو بالعكس نتيجة لتطور العقل الإنساني وتفاوته مما سلفه على مر الزمن. وإذا يتشاءم المجتمع ذكر كلمة ما أو طرح مسألة ما فيستبدل بها تعابير أخرى، وهذا استنادًا إلى مراعاة لتأثيرها على النفس البشرية. وصار للآيات القرآنية أيضًا هذا ما أنجزت من أجل تقليل تأثيرها السلبي في الأذهان.[٣]

---

[١] رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص ٦٢-٦٣.

[٢] ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص ١٧٧.

[٣] أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٣٧-٢٤٢؛ فرهاد عزيز محيي الدين، أثر العامل النفسي في تغير دلالات الألفاظ، ص ٤-١٠.

ثمة عوامل عدة تفضي إلى التطور الدلالي، إما صوتية أو قواعدية، ومع هذا لا نقف إلا عند تغير معاني المفردات أو بعبارة أخرى تباين تفسير دلالة المفردات عبر انتقال اللغة من السلف إلى الخلف. لأن الجيل اللاحق لا يفهم الكلمات جميعها على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق، وهذا أثر العوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤثر في مدلول الكلمات. وعبر تحول الكلمات إلى معان أخرى تعتري المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق. إذ إن مظاهر التطور الدلالي هي سعة الدلالة أو ضيقها أو انتقالها بتخصيص أو تعميم. وكثيرًا ما يتغير مدلول الكلمة على إثر انتقالها من لغة إلى أخرى، وتُستعمل الكلمة في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين، وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال أو قد ترتفع إلى منزلة راقية فتعدّ من نبيل القول ومصطفاه، ويعدّ هذا النوع من التغير نسبيًا لأنه يختلف من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر أو من شخص لآخر حسب اختلاف مقاييس القيم.[1]

والتمطّط لغةً: التمدد والتزلج، والتمطّط في الكلام يعني "مدَّهُ ولوّنَ فيه".[2] وإن التمطّط اللغوي يكثر في الترجمة مما ينبع من أسباب عدّة: أهمها: اختلاف المجال الدلالي، والتوزيع السياقي في كلتا اللغتين وإغفال المترجم عن هذا، واستخدام المجاز وتصريفه حسب مذهب المترجم، ومبالغة التلطف لا سيما استنادًا إلى قدسية النص، وصرف النظر عن تعبير بعض

---

[1] الشتيوي، التغير الدلالي وأثره في فهم النص القرآني، ص ٧٤. انتقال الدلالة بصفة التمطط اللغوي. وهذا النوع ما طرأ على تفسير القرآن، إضافة إليه اختلاف الطبقات والجماعات

[2] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص ٨٧٦؛ الأزهري، تهذيب اللغة، ج١٣، ص ٣٠٩؛ لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، ص ٧٦٦.

الكلمات مراعاة للامساس فيها، والتنحي عن فروق المألوفات الثقافية والاجتماعية لكلتا اللغتين. إذ قد يعد اللفظان مترادفين في اللغتين في معناهما لكنهما يختلفان في تطبيقات الاستعمال والسياقات اللغوية التي يردان فيها.[1] كما تتردد الكلمة بين الرقي والانحطاط في سلم الاستعمال الاجتماعي، وقد تصعد إلى القمة أحيانًا وتهبط إلى الحضيض أحيانًا أخرى. وهذا التمطّط اللغوي وهو يعكس أشكال انتقال المعنى على غرار انحطاطه أو ابتذاله أو رقيه. ويشترك في هذا، تعلم الفلاسفة المسلمين مفاهيم جديدة وردت كلمات مناسبة في لغة القرآن لتمثلها. مع أن المفاهيم أنفسها حديثة، فمن الطبيعي أن تحدث تناقضات بين الفكر واللغة أيا ما كان. وإن الفلسفة الإسلامية من الناحية الدلالية نظام غريب جدًا يتألف من كلمات شبه شفافة.[2]

تغيير الحقل الدلالي الذي كانت تنتمي إليه الكلمة، هو الذي يجسّد بعض المجتمعات والثقافات ويفضى إلى اختلاف التعبير عن النص نفسه، إذ أفراد كل منها أصبحوا محتاجين إلى إنشاء مصطلحات خاصة تستأثر بانتباههم تبعًا لورودها في حياتهم، ولجؤوا إلى إيجاد التأويلات الجديدة مما تُستخدم مفردات في غير ما وضعت له، وأخرجوا الكلمات من

---

[1] أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٥٢-٢٥٤.

[2] أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٤٨؛ ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص ١٨٦؛ توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ص ١١٢-١١٦

مدلولاتها الأولى، واختلفت وجهة نظر كل جماعة عن غيرها كعاقبة استقلال المناطق.[1]

وتعدّ المفارقة اللغوية نوعًا من التمطط اللغوي، إذ يعني أنه مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود، الذي يحتمه السياق أو الموقف التبليغي. إذ الدلالة في المفارقة دلالة لفظية سياقية تخرج على معنى الجملة الحرفي إلى معنى المتكلم على ظاهر المعنى إلى ضده، على غرار المجاز والتمثيل والكناية والاستعارة.[2] إنّ هذا كله لا يشكّل عبئًا لغويًا، إنما هو أمر طبيعي في اللغة، لكن المشكلة إبداع المعاني المجازية وتصريفها حسب الرؤية الخاصة للأشخاص أو الجماعات بما يتمطّط الكلام في النص القرآني.

عواقب التمطط اللغوي في النص القرآني

تغير الدلالة في القرآن ناجم عن عدة طرق، ومنها المشترك اللفظي الذي يعني اللفظ الواحد الدال على معنين مختلفين أو أكثر، والاتساع في التأويل عن طريق الصيرورة أي أن اللفظ كان يعني أمرًا ما ثم أصبح يعني شيئًا آخر بخلاف المجاز الذي يحتوي علاقة بين الدلالة الآلية والدلالة المجازية. وثمّة نماذج من الاشتراك اللغوي في استعمال القرآن مثل: الصلاة، الدعاء، الأمة، الحساب وغيرها التي تتحول معانيها بحلول الإسلام، لكن سنعرض النماذج السلبية في استعمال المفردات القرآنية تحت عنوان التمطط اللغوي.[3]

---

[1] علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ٣٢٣؛ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٤٣-

[2] محمد العبد، المفارقة القرآنية، ص ١٧-٣٧.

[3] عبد الكريم خالد عناية وحسام أحمد هاشم، أثر السياق القرآني في تغير دلالة الألفاظ، ص١٧١.

"المقام" هو المركز الذي يدور حول علم الدلالة، وهو الأساس الذي ينبني عليه الشق الاجتماعي، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء "المقال". وإجلاء المعنى على المستوى الوظيفي وعلى المستوى المعجمي لا يعطينا إلا معنى المقال، وبالمقابل فإن هذا المقال يؤدينا إلى روح القانون، تخطيًا عن نص القانون. وبعبارة أخرى عدم الاكتفاء بمعنى المقال أي الميل إلى منطوق الآية والنزوع إلى سبيل معرفة أسباب نزولها وظروفها الاجتماعية والتاريخية، أي تخطي المعنى الحرفي إلى المعنى الاجتماعي، يستنتج عدم الوقوف عند معنى "المقال" والارتجاع إلى معنى "المقام". فعدم الارتفاع إلى سبب ورود الكلام وملاحظة مقصوده ينقصنا في تفسير الآيات القرآنية. على سبيل المثال، اليهود لم يستطيعوا الاطلاع على معنى المقال وحبسوا في معنى المقال الظاهر، إذ حينما سمعوا الآية القائلة: "من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا"(سورة البقرة-٢٤٥) قالوا: "إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه يطلب منا القرض". من هنا نقصد أن المعنى الدلالي يعتمد هاتين الدعامتين وهما: المعنى المقالي وهو مكوّن من المعنى الوظيفي والمعنى المعجمي، وهذا يسمح بتعدد الفهم للمقال حسب خلفية القارئ أو المستمع، وهو ما نرفضه، مقابلًا للمعنى المقامي من ظروف أداء المقال وهي التي تشتمل على القرائن، وهو ما نؤيده في فهم النص القرآني. وعلى سبيل التفريق بين هاتين فلا بد من حسن الاستشهاد.[1]

[1] تمام حسن، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٣٧-٣٣٩.

تختلف الدلالة العرفية عن نظام الدلالة الطبيعية ونظام الدلالة المنطقية، أي الدلالة العلامية في مجتمعات فردية النشأة فتكون نماذجها قائمة بذاتها، إذ تتبنى الدلالة في ذهن المرء على النمط العرفي، لأن الإنسان مجبول بفطرته على مشاعر إذا تعهّدها العرف الاجتماعي آلت معه إلى منازل وجدانية وسلوكية، وتفاعل المرء مع معان محددة تكون خصيصة الثقافة فتعد مكتسبًا، ولذلك يعد من دلالة العرف ويساق مع ميراث الحضارة عبر القرون بصور شتى.[1] في هذا الصدد في تفسيرات القرآن المترجمة خاصةً أي في الثقافات المتباينة، من الملاحظ أن هناك تنوّعا في التأويلات المستحدثة لأجل إثبات عالمية القرآن وعمومية أحكامه في كل قرن وفي كل فرد، وعدم معارضته مع تجديدات اليوم المعاصر بل كشفه عنها وإشارته إليها. وهذه، نتيجة تناول الآيات وتقييمها في إطار عرف المجتمع وهو غير الذي نزل القرآن فيه، وفي ظروف قرن يتم التفسير فيه وليس مراعاة لظروف القرن الذي نزل القرآن فيه. على سبيل المثال، يتم تفسير كلمة "فاضربوهن"(سورة النساء-٣٤) في يومنا في التفاسير المترجمة بدلالات أخرى أو بالإضافة الشرح نحو: "التصفيق، أو اللطمة الخفيفة، أو الركض باليد، أو الضرب بالضغث مثلما ورد في الآية (سورة ص-٤٤)، أو الابتعاد عنهن جنسيًا". إذ يشددون بأن كلمة الضرب لا يعني هنا الضرب الحقيقي لأن هذا العمل الوحشي لا يتلاءم مع حقائق الدول المعاصرة التي تحفظ حقوق المرأة فيها ضد الضرب والعنف. لذا يعلّقون عن المعاني رجمًا بالغيب في نسيج الثقافة الشعبية وفقًا لهم، لكن التأويل يتبع للظن، والوهم ولا يتخطى مرحلة أفكار شخصية بوصفه

[1] عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص ٥٢-٥٧.

غير مسلّم به. هذا ما قصدناه من التمطط اللغوي في فهم النص القرآني، وبالإمكان إكثار النماذج من الآيات ولكن لا نذهب إلى الإطالة. كما ينبغي الوقوف على السياق بوصفه منبئًا عن مقتضى الدلالة، وعلى سبب نزول الآية، ولا يحدد المعنى إلا القرينة، إذ لا تُصرّح كلمة ما بصورة صحيحة إلا حين قراءتها في سياقها، وفي حال تجريدها من سباق ولحاق تبعًا لها، لن يبقى هناك إلا خزعبلات مثلما يلاحظ في المثال.[1]

ووضع المعنى في غير موضعه وزعم المعاني التي ما خطرت ببال العرب عند سماعه لكلمة أو آية ما حين تلقّي رسالة الآيات، يسلخ الدلالة من جلدها وهي حية في مقرّها، لأن تلك الكلمة في عصر النبوة لم تلق المعنى الذي يتحمل المعنى اليوم، بسبب تعرّضها للتطوّر الدلالي عبر الزمن صعودًا أو هبوطًا. وهذه الحيرة في انتقاء المعنى الصواب في الدلالة ينطلق من حب الاستطلاع على الجديد، وهذا لبّ إشكالية الفهم في التعامل مع النص القرآني. ومن المسلّم به أن التطور والتجدد في الحياة الفعالة أمرٌ طبيعيٌ، لكن هذا لا يسوّغ حمل المعاني إلى غير ما وضع واضعه ودون مآلها. إذ ثمة ألوان عديدة من الفن والعلم، وفي حال إطلاق المعاني في كل فترة وفقَ تطورات العلم والفنون، سيغدو الكلام الإلهي متغير المعنى حسب الناس والعصور. وهذا ينتج تشويش القصد الرباني مما يفضي إلى إساءة الفهم والتطبيق في المعاملات التشريعية.

وأحيانًا يتأتى التمطّط اللغوي في شأن فهم الآيات القرآنية بحسن النية مع الدافع الديني العميق الخاص بالتقوى الفردي حرصًا على حماية قدسية القرآن. إن بعض المفسرين المعاصرين بدافع الحرص الشديد على الدفاع

[1] محمد علي الخولي، علم الدلالة علم المعنى، ص ٦٩.

عن الآيات القرآنية أمام مكتشفات الغرب، طوّروا دلالات حديثة فاستجدّت المفاهيم وأشبعت التفاسير بالتضخيم الذي لا طائل منه، كما همّشوا أن الأصل في اللغة أن تستقر الكلمة على حالها الأول ما لم يكن داع إلى أن تُترك وتتحول.[1] وهذه كانت عاقبة متوقعة نوعًا ما، إذ إن الإسلام أنتج أنظمة تفكير عديدة مختلفة في المراحل اللاحقة له، وقد طوّر الإسلام مفردات لغوية كثيرة تتناغم ونظامه المفهومي الخاص، أي معجمه الخاص الذي يتألف في ذاته.[2] لكن هذا أيضًا سبّب إلى الانحراف عن المعنى الأصلي بانعزال الكلمات عن سياقها وصرف النظر عن مفهومها المتداول في تلك الحقبة التي نزلت على مخاطبيها وأُدركت من قِبلهم.

عندما يتطور المعنى ويصل إلى شكل محدد ما في المسار التطوري، يخدم غرضًا معينًا وفق رغبة المتطور ومصلحته، ويصبح صالحًا للاستعمال في أغراض أخرى.[3] إذا المرء يتمطط في الكلام ويتوانى عن الحقائق الموضوعية مثل سبب النزول وتطبيق النبي الكريم في آية ما، يفهمها حسب اعتقاده في سبيل توثيق مذهبه الديني، فلا يبقى هناك غير وجوبية الدقة العملية في انتقاء المعاني المتطورة لأجل تؤدي أغراضها، لئلا تضيع المفاهيم ويتقلقل استقرارها وثباتها الدلالي، وتصبح شيئًا متحولًا. ويبنع هذا من أن ينظر إلى الظواهر اللغوية إزاء خلفية النزعة العقلانية المتزايدة لدى المسلمين، وبهذا التوجه تحولت مشكلة العلاقة بين المقصود وما وراءه إلى قضية ذات أهمية لا يستهان بها بالنسبة إلى

---

[1] ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٤٥٧.

[2] توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ص ٨٣-٨٤.

[3] نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ص ٢٢٩.

المفكرين المسلمين. إن هذا النوع من التطور الدلالي للمفاهيم يمكن ملاحظته في كل مكان في الفكر الإسلامي لذلك العصر أيضًا كما يلاحظ في يومنا.[1]

اقتراحات

قد انتهى هذا البحث إلى ترجيح سبب النزول الصحيح الصريح المعتبر في الفهم الصواب للآيات القرآنية على المعنى العرفي تبعًا لثقافة المفسر، لأنه يعني الابتعاد عن المقصود والتجاوز عن سبب وضع الكلام. لذلك لا بد من الالتزام بدلالة السياق وهو الذي يسمح للمتلقّيين إدراك الكلام كما وُضع، لأنه يربط الكلام بعضه ببعض ليظهر المغزى الذي يريد المتكلم والهدف الذي يرمي به.[2] كما نستنتج مما سبق ذكره أن للجانب النفسي والاجتماعي دورًا كبيرًا وأثرًا بارزًا في تطور دلالة المفردات وتمطّطها. واستبدال الكلمات بأخرى مغايرة أو اختراع تأويلات مستطرفة تسيطرها الاتجاهات التي تنتاب المشاعر الإنسانية.

لذلك لا بد في فهم النص القرآني واستنباط الحكم منه من أن يُنظر إلى النص في ضوء دلالته الأولى التي أدركها مخاطبوه ، كي لا يُبخس في القرآن حقه ولا يُدّعى له ما ليس له. إذ تحويل المعاني في ظل التطورات العلمية والفنية وحسب اختلاف وجهة النظر عند المسلمين الذين ينتسب كل فرقة منهم إلى ثقافة ومفاهيم مختلفة من غيرها، سيسفر عن إقصاء العبارة عن المراد. وهذه عاقبةٌ وخيمةٌ في التفاعل مع كتابنا المقدس.

---

[1] توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ص ١٠٠-١٠٤.

[2] محمد أبو زيد، الترجيح بين دلالة السياق وسبب النزول، ص ١٢.

لذلك كالسبيل السديد في هذا الشأن، فمن المقترح الانصراف عن الرؤية المحلّية والتفكير بمنأي عن أسباب نزول القرآن، في سبيل النيل إلى مقصود الآية كما ينبغي في إطار العرف والظروف في تلك الحقبة، وليس في زمن تأويلها.

ومن المسلم به أن القرآن المجيد هو السند الرئيس للمسلمين، ومصدر العلوم الشرعية، انطلاقًا من هذا، يحسن الاعتماد للفهم السليم من الآيات القرآنية على أركان أساسية: أولًا ينبغي ألا يُغفل عن آيات تفسّر بعضها (هذه هي روح القرآن ومنطقه)، والسنة النبوية (هذا الذي يوظّف الآيات بالفهم الأسلم)، وأسباب النزول (هذا الذي يقيّد القول أو يعمّم) ومعرفة النظام الاجتماعية عند العرب (هذه هي تجسّد الآيات في صورتها).[1]

والمعنى الاجتماعي أي المقام شرطٌ لاكتمال المعنى الدلالي بوجه صائب، عبر تحليل العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها على مستوى المعجم. وإلا، لا نستطيع أن ندعي أننا وصلنا إلى فهم المعنى الدلالي لأن الوصول إلى المعنى الصواب يتطلب فوق كل ما تقدم ملاحظة العنصر الاجتماعي الذي هو المقام.[2]

إن التأويل هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله، أي التصرف في اللفظ بما يكشف عن مقصوده، وأما التفسير فهو بيان معنى اللفظة.[3] لذا لا يُنكر وجوب التأويل، لا سيما لأجل تجسير الهوة بين الجيل الجديد والقرآن الكريم، لكن علينا الفصل بين التطور التنويري والتطور التعريفي التزامًا بضوابط تجديد الخطاب الديني وكيفيته.

---

[1] تمام حسن، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٤٨.

[2] تمام حسن، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٣٤٢.

[3] النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ١٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (١٩٥٢) الخصائص، دار الكتب المصرية، مصر.

أبو زيد، محمد، (٢٠١٢) الترجيح بين دلالة السياق وسبب النزول، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٨، العدد ٣+٤، دمشق.

الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد، (بدون تاريخ) تهذيب اللغة، الدار المصرية، ط١، مصر.

الآمدي، علي بن محمد، (٢٠٠٣) الإحكام في أصول الأحكام، دار الصميعي، ط١، الرياض.

أولمان، ستيفن، (١٩٩٧) دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، دار غريب، ط١٢، القاهرة.

إيزوتسو، توشيهيكو، (٢٠٠٧) الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة: هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت.

پاي، ماريو، (١٩٩٨) أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٨، القاهرة.

تشومسكي، نعوم، (١٩٩٠) اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، الدار البيضاء، ط١، الرياض.

حسان، تمام، (١٩٩٤) اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب.

حسان، تمام، (١٩٩٠) مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الخولي، محمد علي، (٢٠٠١) علم الدلالة علم المعنى، دار الفلاح، الأردن.

زيدان، جرجي، (١٩٨٧) الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية تاريخ اللغة العربية، دار الحداثة، ط١، لبنان.

الشتيوي، محمد بن علي الجيلاني، (٢٠١١) التغير الدلالي وأثره في فهم النص القرآني، مكتبة حسن العصرية، ط١، بيروت.

عبد التواب، رمضان، (٢٠٠٠) لحن العامة والتطور اللغوي، مكتبة الزهراء الشرق، القاهرة.

العبد، محمد، (١٩٩٤) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، ط١، مصر.

عمر، أحمد مختار، (١٩٩٨) علم الدلالة، عالم الكتب، ط٥، القاهرة.

عناية،عبد الكريم خالد؛ هاشم، حسام أحمد، (٢٠١٤) أثر السياق القرآني في تغير دلالة الألفاظ، مجلة آداب البصرة، العدد ٦٩، البصرة.

قلالة، عمار، (٢٠١٣) التطور الدلالي في مقاييس اللغة لابن فارس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

المبارك، محمد، (١٩٦٤) فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، دمشق.

مجمع اللغة العربية، (٢٠٠٤) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، مصر.

محيي الدين، فرهاد عزيز، (٢٠١٣) أثر العامل النفسيفي تغير دلالات الألفاظ، مجلة جامعة كركوك، المجلد ٨، العدد ١، العراق.

المسدي، عبد السلام، (١٩٨٦) اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية، تونس.

معلوف، لويس، (بدون تاريخ) المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، ط١٩، بيروت.

منقور، عبد الجليل، (٢٠٠١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

النووي، أبو ذكريا محيي الدين بن شرف، (بدون تاريخ) تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

وافي، علي عبد الواحد، (٢٠٠٤) علم اللغة، نهضة مصر، ط٩، مصر.

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية